المحاضرة رقم 06

السرد الجزائري المكتوب بلغات أخرى.

أولا- الرواية الجزائرية:

1-مهاد تاريخي:

انتهج الاحتلال الفرنسي سياسة التجهيل، ومحاولة تشويه الشخصية الجزائرية، وجعلها تعيش الغربة في وطنها، ولا يتحقق ذلك الأمر إلا إذا سعى نحو محو معالم تلك الشخصية الممتدة في عروبتها وإسلامها وتاريخها الطويل ما قبل الفتح الإسلامي، وانتهج في سبيل ذلك تعميم التعليم الفرنسي لفئات معينة في بداية الأمر، ثم فتح المجال واسعا لمختلف الشرائح، وترغيب الناس في اللغة الفرنسية بوصفها لغة العلم والتقدم، ولغة الحضارة، والمواطنة. وقد كانت له صولات، وجولات في ذلك الأمر، لكونه يمتلك إمكانات مادية وبشرية تسهم في نشر الوعي الذي سيخدم مصالح فرنسا على المدى البعيد. وضمن هذا الإطار «أخذت الحكومة الاستعمارية تفتح أبواب المدارس شيئا فشيئا أمام أبناء الجزائريين، منذ سنة 1883، لكن التعليم كان –ولا يزال – فرنسيا بحتا، لا عربيا ولا جزائريا، فاللغة الفرنسية هي لغة الوطن، وبلاد فرنسا فيه هي الوطن، وتاريخ فرنسا فيه هو تاريخ الوطن، وهكذا...» [1]. وقد توهم الفرنسيون وأعوانهم بأن الجزائر بعد عدة سنوات سينتج فيها جيل ممسوخ، فقد ملامحه، وتبنى لغة المحتل وذاب فيها. وقد احتفل هذا الاحتلال

[1] أحمد توفيق المدني المدني. هذه هي الجزائر. ص140–141.

بعد قرن على الغزو بفخر واعتزاز على أن الجزائر فقدت هويتها. وأصبح هذا الأمر مؤلما للجزائريين، أو الأهالي كما اصطلح عليهم آنذاك؛ «فلم يبق هناك من جزائري إلا وأحس بفتح ذلك الجرح الدامي من جديد، وتذكر تلك المآسي والموبقات التي ارتكبت منذ فجر الاحتلال إلى يوم الاحتفال، ورأى رأي العين كيف يحتفل المستعمرون بذكرى انكسار الجزائريين، وكيف كانوا ينادون بأن الجزائر فرنسية، وستبقى فرنسية إلى الأبد، وكيف كانوا يتفننون في ابتكار أساليب الثلب والشتم لتاريخنا، ولرجالنا، ولماضينا، ولديننا، وللغتنا.» [1] .

ولم يكن هذا النوع من الاحتلال يعتمد القوة العسكرية فحسب؛ بل إنه اعتمد ترسانة من علمائه الكبار، ومفكريه، وأدبائه الذين راحوا يصنعون للجزائر تاريخا مغايرا، مفاده أن أصل الشعب الفرنسي والجزائري يخرج من أرومة واحدة وهي بلاد الغال. وبذلك فقد هذا جاء الاحتلال لاسترداد جزء من بلاده الذي فقده عبر التاريخ. وسبيل الإقناع في ذلك سيكون من منطلق لغوي أولا، ثم حمولة ثقافية تمارس غسل الدماغ الجزائري، وجعله قابلا للانقياد. «فاللغة تساعدهم على بث أفكارهم مثلما تساعدهم القوة العسكرية في توطيد حكمهم. وكلاهما يخدم الهدف الذي جاءوا من أجله وهو السيطرة المادية والروحية على الشعب الجزائري. فاللغة هنا لا تقوم بوظيفة تعليمية ثقافية روحية ونفسية، ولكن تقوم بغسل العقل وجعله مستعدا لتقبل الهيمنة الأجنبية والاحتواء الحضاري.» [2]

وإذا كان دوام الحال من المحال؛ فإن الشعب الجزائري حصل على استقلاله، وسعى نحو النهوض والبناء، واستعادة مقومات الهوية الوطنية. وترميم مختلف الجراحات التي أثقلت كاهله، منها الأمية، والفقد، والارامل، واليتامى، والمعطوبين، ونقص الإطارات التي يمكن أن تدير دواليب الإدارة، وغرس قيم ومفاهيم جديدة للدولة والشعب معا، وتكريس مبدأ الهوية الوطنية بمختلف المكونات التاريخية

---

[1] أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر. ص166.

[2] عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقا وغربا. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر دت.57.

والسياسية والحضارية التي أقرها نظام الحكم بعد استعادة الحرية. «فاستقلال الجزائر الذي تحقق في عام 1962 ميّز عهدا من المصطلحات الجديدة. فمنذ هذا التاريخ أصبح اصطلاح (الجزائري) يشير إلى السكان المحليين للبلاد، وليس المعمرين أو أحفادهم. وهناك عديد من المصطلحات التي كانت تستخدم إبان الاحتلال أمثال (العرب)، (القبائل)، (الفرنسيون المسلمون المولودون في الجزائر). قد تغير الآن مدلولها، وأصبحت تستعمل الآن حسب مفهومها التاريخي الجديد. ومن جهة ثانية، ينبغي أن نشير إلى أن هناك بعض الأوربيين الذين ولدوا في الجزائر وآثروا الجنسية الجزائرية بعد عام 1962. غير أن عدد هؤلاء يبدو ضئيلا وفي مجال الأدب لا يوجد إلا شاعر واحد هو (جان سيناك)»[1].

ولم يكن في وسع كثير من أدباء فرنسا الذين ولدوا وترعرعوا في الجزائر أن يتمسكوا بجزائريتهم، وكانوا قد دعوا في كثير من المناسبات إلى التمسك بجزائريتهم، ولكن ذلك التمسك كان يعد الجزائر موطنا سياحيا فقط لما فيه من خيرات، وخضرة، ومناطق سياحية خلابة. فكانت الجزائر أرضا فقط، وليست انتماء «إن الشعور القومي ما لم يكن تجسيدا منسجما لأعمق مطامح الشعب بمجموعه، وما لم يكن ثمرة مباشرة حية نابضة للتعبئة الشعبية، فلن يكون في أحسن الأحوال إلا شكلا لا مضمون له، سريع الزوال قليل الدقة والوضوح والصدوع التي نجدها فيه عندئذ هي السبب في أن البلاد الناشئة المستقلة كثيرا ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة إلى حالة القبيلة، ومن مستوى الدولة إلى مستوى العشيرة.»[2]

وبمقارنة بسيطة بين احتلال الجزائر، واحتلال باقي الشعوب العربية الأخرى، يبدو الفرق واضحا، وهو أنه كان في باقي الأقطار عبارة عن وصاية. أما في الجزائر فقد عمل على تعطيل كل ما يمت لشخصية الشعب بصلة، وذلك استجابة للقانون الذي سنه الدستور الفرنسي، وهو أن الجزائر قطعة فرنسية. «ولم تعرف الأقطار العربية الأخرى هذا الوضع. فاللغة العربية، وإن أصابها الجمود في فترة

[1]) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967. ترجمة: محمد صقر. ديوان المطبوعات الجامعية. ص49.
[2]) فرانس فانون: معذبو الأرض. ص124

معينة أثناء الحكم العثماني أو الاستعمار الفرنسي، فإنها لم تتعرض للتدمير والمنع بحكم القانون، كما هو الشأن بالنسبة لها في الجزائر. وكل ما تعرضت له أحيانا هو وضعها في المقام الثاني في المدارس مثلا كما في بعض فترات الاحتلال الانجليزي في مصر... وكذلك الأمر في فرض اللغة الفرنسية في سوريا، إلى جانب أو على حساب اللغة العربية، ولكنها لم تطغ على اللغة الأصلية أبدا» [1]. ولذلك استاء بعض المثقفين المشارقة الذين وفدوا على الجزائر من أن هذا البلد يكاد يفقد هويته العربية الإسلامية بفعل سياسة المحو، والتضييق التي مارسها الاحتلال الفرنسي. حتى قال أحمد شوقي بأنني عهدت مساح الأحذية لا يتكلم إلا بالفرنسية. ورأى سلامة موسى أن العربية لم تعد موجودة في بلد اسمه الجزائر. وبرغم قساوة مثل هذه المواقف، إلا أنها تعكس أحيانا الجهل بحقيقة التركيبة النفسية والاجتماعية للشعب. فالشعب الجزائري عرف على مر العصور بأنه شعب متمنع، قوي الشكيمة، معاند لا يستسلم بسهولة، ولا يستكين بذلة، ولا يذوب في الآخر، والدلائل التاريخية تبين لنا هذه الحقيقة؛ إذ تكالبت عليه قوى استعمارية كثيرة عبر قرون سحيقة، وظل محافظا على هويته، ونسبه.

[1]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

2- هوية الأدب الجزائري بالمكتوب بالفرنسية:

عمل مثقفو فرنسا على إنشاء جمعيات ثقافية وحركات أدبية، وكان الغرض منها هو محاولة إضفاء مصطلحات جديدة على منطقة المغرب العربي، وتخلصوا من هذه التسمية بإنتاج مصطلحات أخرى مثل المتوسطية، والشمال الإفريقي. وقد ضموا إليهم كثيرا من الشخصيات الجزائرية المثقفة، وجعلوها تتغنى بمبادئ تلك الحركات والجمعيات، وبحضارة أوربا، وتخلف باقي شعوب العالم. وذلك نتيجة التشبع بمبادئ وقيم المدرسة الفرنسية، فاستلبوا لغويا، وفكريا؛ بل إنهم أصبحوا غرباء عن مجتمعهم الأصلي؛ «لأن الغربة التي يعانون منها والاستلاب الذي حجب عنهم الرؤية التاريخية قد جعلهم هذا كله يتنكرون لجذورهم وتلك مأساتهم ومأساة الثقافة معهم، لقد أدى بهم الأمر إلى معاداة الثوابت الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية التي هي عنوان الثقافة ورمزها الأصيل.» [1]. بل أضحت العربية عند بعضهم هي لغة التخلف، والرجعية.

وضمن النشاط الأدبي الدؤوب، تم احتضان هؤلاء المثقفين الجزائريين، وتحفيزهم على التعبير والإبداع، والإعلاء من شأنهم بغرض إغرائهم، وجعلهم يحسون بمكانة غير عادية وسط هؤلاء الأدباء الفرنسيين، وكذا تحسيسهم بقيمة ما يكتبون، والإشادة بمؤلفاتهم. «وفي عام 1953 قامت مجلة الأخبار الأدبية (Les Nouvelles Littéraires) باستفتاء حول هذا السؤال: هل هناك مدرسة أدبية شمال إفريقية؟ وواضح من السؤال أن واضعه يتصور أن الأدب الذي ينتجه كتاب شمال إفريقية باللغة الفرنسية إنما هو جزء من الأدب الفرنسي، ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقا بأن يُعد مدرسة قائمة بنفسها من مدارس الأدب الفرنسي.» [2] . وعادة ما يتناول الباحثون المتخصصون في النقد، والتاريخ الأدبي فكرة هوية النص شعرا كان أم نثرا. وما هي مسببات ظهوره، والشروط التاريخية، والحضارية التي أنتجته،

---

[1]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[2]) محمد ديب: الدار الكبيرة. ترجمة: سامي الدروبي. مقدمة المترجم. دار الهلال. مصر. ص 7.

ومختلف التأثيرات التي أحدثتها تلك النصوص؛ «ومن ثمّ كان لا بد أن يقف الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية موقف الاتهام، لأن الإحساس القومي الذي نما بين أفراد الشعب منذ مدة طويلة قد بلغ القمة في الثورة، وصاحب ذلك رد ضعيف ضد ما حمله الاستعمار من تقاليد وأفكار وثقافة وأدب» [1].

ويمكن القول أيضا: إن الغربة، والاستلاب اللذان حصلا جراء ممارسات المحو لا تنفي توفر النبض الجزائري والمغاربي في إنتاج بعض أدبائنا، فإذا انصهر الأدباء في روح اللغة الفرنسية؛ فإنهم انصهروا من جهة ثانية أيضا في روح المجتمع الجزائري، فشعروا بمآسيه، وحاولوا إخراج صور كثيرة من الأسى، والمحن التي كان يتخبط فيها. «ولا يمكن أن ننفي الإحساس المغاربي والجزائري بشكل أخص من إبداع هؤلاء الكتاب. فقلبهم بنبض بمآسي المجتمع الرازح تحت قهر المحتل، الذي سلبه خيرات بلاده، وتركه فريسة للجوع. فامتلأت روحهم بالأسى من جهة، وبحب الرفض والتطلع إلى غد أفضل»[2]. وقد ظهرت أعمال مميزة مكتوبة بالفرنسية، وهي غنية بما عانى منه المجتمع الجزائري من فقر، وجوع، وتمييز عنصري، شعر فيه الناس بكثير من الذل والهوان؛ «فهم بالرغم من أنهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة في التعبير عن آرائهم، وأفكارهم ونظراتهم إلى الوجود، ومذاهبهم في الحياة، فإن هذه الآراء في حد ذاتها لم تكن تعدم في كثير من عناصرها، وأصولها الروح الجزائري النابض» [3]. ولم تمنع قلة الجمهور المتابع للمشهد الثقافي، والأدبي على وجه الخصوص من وجود قارئ يمكن أن يتابع ما يكتب الأديب الجزائري، وقد يكون ذلك الأديب الجزائري المتأثر بالأدب الفرنسي والأوربي واضعا صوب عينيه أن القارئ الماثل أمامه هو قارئ غير عربي؛ لكن تشير التقديرات، وبعض الدراسات النقدية التي تناولت هذا الأدب بأن القارئ موجود على قلته. «والأمر يكاد يكون نفسه مع مراعاة الفوارق التاريخية؛ ففي عهد الاستعمار الفرنسي

---

[1]) المرجع نفسه. ص243.

[2]) عبد المالك ضيف: معالم في تشكلات النص الأدبي الجزائري. ص261.

[3]) عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر.1925–1954. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983. ص25.

الظالم، ونظرا لتحقق كثير من مساعي محو الشخصية الوطنية، خاصة التجهيل، وجعل اللغة العربية غريبة في بلدها. فقد ظهر الشعراء والأدباء مع قليل من الجمهور؛ لأن القارئ لا يمكن أن يتقبل عملا أدبيا وهو جاهل لآليات اللغة التي تؤهله للتقبل.»[1].

إن المجتمع هو نسيج من العلاقات التي تنتجها شروط اجتماعية، وتاريخية معينة. وتتأسس تلك الشبكة من مستويات بشرية متباينة تحكمها اللغة، ومستوى الثقافة، والوعي. وتتحرك مكونات البنية الاجتماعية وفق معطيات الزمن ومتغيرات الظروف. «فشبكة العلاقات الاجتماعية تتأسس، حسب علماء الاجتماع، من منطق الغريزة التي تحدد معالم الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا، ثم تعطى له مسببات الحركة الزمنية، فيصبح عنصر الزمن هو الحدث الأساسي للمجتمع، إذ ينطلق من نقطة معينة باتجاه نقطة أخرى، يكون التطور عنوان السيرورة الاجتماعية، ويتجه نحو إنتاج الأفكار والإمكانات المادية التي تدعم علاقات الأفراد فيما بينهم»[2]. مع التسليم بجدلية التأثير بينهما؛ فالأفكار تؤثر في الإمكانات المادية، وهذه الأخيرة تمارس تأثيرها في إنتاج الأفكار، وتطورها من مرحلة زمنية إلى أخرى. وتجدر الإشارة إلى أن فئات الشعب الجزائري أيام الاحتلال الفرنسي كانت متباينة في الرأي والموقف، وفي حجم الانتماء للوطن، فلا يمكن أن نضعها في كفة واحدة. وقد استغل الاحتلال الفرنسي مثل هذه التصدعات، وحاول توظيفها بما يناسب فعلها، ودرجة تأثيرها. وعلى ذلك نجد الموالي له، والمناهض، والمحايد الذي يغطي موقفه ولا يكشف عنه. «إن هذه الشقوق هي السبب فيما تعانيه الاندفاعة القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية. وسنرى الآن أن مواطن الضعف هذه، وما تشتمل عليه من أخطار فادحة، إنما هي نتيجة تاريخية لعجز البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبي، أي عن استخلاص معانيه ودوافعه»[3].

---

[1]) عبد المالك ضيف: الخطاب الشعري الجزائري المعاصر وإشكالية الانتماء الحضاري. ص60.

[2]) عبد المالك ضيف: الخطاب الشعري الجزائري المعاصر وإشكالية الانتماء الحضاري. ص 63.

[3]) فرانس فانون: معذبو الأرض. ص124

وإذا كان الاستدمار الفرنسي قد حاول التغطية على فعل المقاومة، والذي توسّل بوسائل متنوعة، منها السيف والقلم؛ فقد أضحت كثير من النصوص الروائية شاهدة على عصر الإبادة الفرنسي. وقد عبرت بعمق عن أنماط الحياة التي كانت متاحة بمختلف مآسيها، وألوان العذاب. و «لا بد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام، فإما أن يحققها وإما أن يخونها. والأجيال السابقة في البلاد المتخلفة قد قامت بعملين في آن واحد: قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن. فيجب علينا ونحن في قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التي تعودناها وهي أن نبخس الأعمال التي قام بها آباؤنا حقها، وأن نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم. فالحق أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا، ناضلوا بالأسلحة التي كانوا يمتلكونها أيامئذ، وإذا لم تترجّع أصداء نضالهم على المستوى الدولي، فليس مرد ذلك إلى نقص بطولتهم»[1].

وينشأ فعل التعبير الأدبي من خلال رؤية الأدباء لطبيعة الحركة الاجتماعية، وفعل الإنتاج بمختلف تنوعاته. ومن هذا المنطلق، يمكن القول: إن حركة الأدب الجزائري في راهن الاحتلال حاولت التعبير عن ملامح المجتمع الجزائري في شبكة علاقاته، ومختلف المؤثرات التي كانت تشحن نفسية أفراده ورؤيتهم للأشياء المحيطة بهم. فلم يكن التعبير عن الجوع من نسج الخيال، ولا التعبير عن القهر والذل من محض الصدف. «إن الإنتاج الأدبي والايديولوجي جزء لا يتجزء [لا يتجزأ] من العملية الإنتاجية الكلية، ونظرا لكونه كذلك فإن التساؤل عن مضمون المولفات [المؤلفات] الأدبية الذي يعني اللحظة المركزية في التحليل السوسيولوجي للإنتاج الأدبي يهدف إلى تحديد شبكة القوة الاجتماعية والطبقات التي نمذجتها الشخصيات الروائية والقصصية، والعلاقات الاجتماعية والطبقات التي نمطتها»[2]. وقد جاءت الرواية المكتوبة بالفرنسية عنوانا لمرحلة تاريخية حساسة في حياة المجتمع الجزائري. وإن كان الشعر المكتوب باللغة العربية –في المقابل–قد زها في مرحلة

---

[1]) فرانس فانون: معذبو الأرض. ص167.

[2]) عمار بلحسن: الأدب والإيديولوجية. ط2. دار مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء 1991. ص 61.

ما بين الحربين العالميتين، بفضل حركة الإصلاح، وتأسيس الصحف والمجلات التي كانت تنشر كثيرا من نصوص الشعر، لشحن الهمم، وتبصير الرأي العام الجزائري بقسوة سياسات المحتل الفرنسي، وحث الشعب على التعلم، وعدم الاستكانة لسياسة ذلك المحتل الفرنسي، وقد لاقى الأمر تضييقا من قبل فرنسا، وفي المقابل حفّزت نشر الأعمال المكتوبة بالفرنسية، خاصة في دار النشر المشهورة (Le seuil). ولم تكن تعلم أن كثيرا من هذه الأعمال كانت مناهضة لسياسة التجويع التي انتهجتها تجاه السكان الجزائريين. «وقد كان الجيل الذي ظهر في عام 1952 أكثر شهرة في البلاد العربية، حيث أن أغلب أعماله قد ترجم إلى اللغة العربية وخاصة في مصر. فمن المعروف أن ثلاثية محمد ديب (البيت الكبير) La grande maison و(الحريق)L'Incendie و(النول)Le métier a tissu ترجمت في مصر في أواخر الستينات ونشرتها روايات الهلال. ومن أبناء هذا الجيل هناك (جان عمروش). ثم مولود فرعون، وهؤلاء الأدباء ما لبثوا أن دخلوا المعركة مع الشباب الذين جاءوا من بعدهم مثل كاتب ياسين، وبشير حاج علي، مالك حداد. منهم الشعراء ومنهم كتاب الرواية كما هو معروف.»[1]. وذلك يدل دلالة واضحة على علو النص السردي الجزائري ورفعته.

[1]) محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية. ص105–106.